



ماذا كان الأمين العام لـ «حزب الله» حسن نصرالله يتنتظر عندما هدد مجازبيه بأنه سيتخذ «إجراءات تنظيمية» في حقهم إذا واصلوا إطلاق الرصاص في الهواء خلال المناسبات الحزبية؟ هل كان يفترض باللبنانيين أن يشكوا وفوداً لشكره على محاولته منع رجاله من قتلهم وهم يسيرون في شوارع بيروت وضواحيها أو يقفون على شرفات منازلهم، أم أن يرفعوا لافتات ترحيب بالاستفادة المتأخرة على أبسط الواجبات وأقل الذنب؟ فاللبنانيون يتساءلون أساساً عن أسباب استمرار وجود كل هذه الغابة من السلاح والمسلحين طالما أن المعركة مع إسرائيل انتهت منذ عقد.

فيعد حرب 2006 المفتعلة، كرس الحزب نفسه قوة داخلية مسلحة خارجة عن الاتفاقيات المعقدة بين اللبنانيين لزع سلاح القوى غير الحكومية وتعزيز الدولة ومؤسساتها، وبدأ يقترب تدريجاً من مواصفات قوى النظام اللبناني التقليدية الموسومة بالفساد بكل أنواعه، وغاص في تحالفات محلية أدخلته في دهاليز لا يتقن العبور فيها بحكم ضعف تجربته.

وكان نجح في سنواته الأولى في رسم صورة مختلفة لنفسه عبر ضبط سلوك عناصره، وعملت ماكينة دعائية جيدة التمويل والتدريب على الترويج لهذا «الاختلاف» داخل لبنان وخارجـه، مستندة إلى مقارنة بمارسات ميليشيات محلية وبعض الفصائل الفلسطينية، علماً أن راعيـها جميعـاً ومحركـها كان هو نفسه، أي نظام حافظ الأسد.

وساعده في هذه المهمة تركيز الإعلاميين الإقليمي والدولي على مواجهاته مع الجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان، ما أوجـد حولـه حالة من التقديرـ. لكن بعد انسـحـاب إـسـرـائـيل في العام ألفـين، وتمـسـكـ الحـزـبـ بـدـفـعـ منـ دـمـشـقـ وـطـهـرـانـ بـأـنـ المـعـرـكـةـ معـهـاـ لنـ تـنـتـهـيـ قبلـ «ـتـحـرـيرـ فـلـسـطـيـنـ»ـ،ـ بـدـأـ أـنـ يـدـخـلـ فـيـ مـوـاجـهـةـ مـفـتوـحةـ مـعـ مـعـظـمـ الـلـبـنـانـيـيـنـ الـذـيـنـ ظـنـوـاـ أـنـهـ اـرـتـاحـوـاـ أـخـيـرـاـ مـنـ عـنـاءـ الـحـرـوـبــ.

واضـطـرـتـهـ هـذـهـ الـمـوـاجـهـةـ،ـ فـيـ إـطـارـ شـدـ عـصـبـ أـعـضـائـهـ وـمـقـاتـلـيـهـ وـمـنـاصـريـهـ،ـ إـلـىـ اـسـتـخـادـ تـعـابـيرـ فـيـ تـوـصـيـفـهـمـ وـتـصـنـيـفـهـمـ

تحوي بنوع من «التفوق» على من عادهم من مواطنיהם، وتلعب على مشاعر طائفية ومذهبية، حتى لو ألبسها لبوس الشعارات السياسية، مثل الممانعة والمقاومة ومقارعة الصهيونية. وأدى ذلك إلى شعور عام بأن جمهور الحزب فوق المحاسبة لأنه «أشرف» و«أطهر» من عداه.

ولم تلبث أن أطاحت سمعة سلسلة فضائح ظهرت إلىعلن عن تورط قياديين فيه، مباشرةً أو عبر عائلاتهم، في قضايا فساد شملت أحياناً تبييض الأموال وتهريب المخدرات. وهذا لا يشمل الاختراقات الأمنية التي كشف هو بعضها، وبينت تورط بعض كوادره في العمالة لإسرائيل.

وأظهرت العقوبات الأميركية المصرفية الأخيرة على مسؤولين في «حزب الله» أنهم لا يختلفون عن معظم السياسيين اللبنانيين الملتجئين إلى طوائفهم لحماية مفاسدهم، وأنهم يمتلكون حسابات مالية شخصية كبيرة غير مبررة ولا تعكس الانصراف الذي يدعونه إلى «النشاط المقاوم»، ولا تتماشى مع الدعاية التي يبثونها عن نزاهة أنفسهم وحزبيهم.

ويأتي تحذير نصرالله الجديد لمسلحي الحزب بعد مناشدات عديدة سابقة، ما يعني اعترافاً بمشكلة يواجهها في ضبطهم عبر التوجيهات الداخلية وحدها، ويفضح ركاكتة في البنية التنظيمية التي تحولت إلى ما يشبه تجمعاً عشائرياً أساسه الانتقام الطائفي الفضفاض وليس الأفكار السياسية والعقائدية، وخصوصاً بعد تدخل الحزب المباشر في سوريا وحاجته إلى تجنيد أكبر عدد من المقاتلين.

لكن ما تعنيه ظاهرة التفلت أن الحزب يحصد ما زرعه بنفسه عندما ارتضى استخدام المذهبية وسيلة للتعبئة، دافعاً عناصره ومحازبيه إلى التعامل بفوقية واعتداد حتى داخل بيئته، وإلى اعتبار بقية اللبنانيين «أعداء» أو «مشتبهاً فيهم»، وهو ما يجعله مجرد مليشيا أخرى مثل تلك التي تكاثرت في لبنان خلال حربه الأهلية ومارست فوقيتها على المدنيين.

وإطلاق النار العشوائي ليس سوى مظهر جانبي لاستباحة بلد بأكمله، والتهديد الدائم باستخدام القوة لفرض وجهة نظر الحزب ومصالحه، ونتيجة للتورط في قتال الشعب السوري إلى جانب حكم مستبد. ومن لا يخجل من جرائم بهذا الحجم يكون اطلاق الرصاص في المناسبات أقل ذنبه.

الحياة اللندنية

المصادر: